الثقافة الإسلامية

(٦)

الغربة والاغتراب

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٦ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... الغربة والاغتراب
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



١ـ الروايات الواردة في الغربة

الروايات الواردة في الغربة والاغتراب متواترة لفظاً ومعنى من طرف الفريقين وفيما يلي إشارة إلى بعض من هذه الروايات:

١- في نوادر الراوندي عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس. إنّه لا وحشة ولا غربة على مؤمن، وما من مؤمن يموت في غربته إلاّ بكت عليه ملائكة السماء، رحمة له، حيث قلّت بواكيه، وفسح له في قبره بنور يتلألأ من حيث دفن إلى مسقط رأسه»[١].

٢ - الإمام الصادق عليه السلام - لما سئل عن قول علي عليه السلام: الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما كان، فطوبى للغرباء - يستأنف الداعي منا دعاءً جديداً كم دعا إليه رسول

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢٠٠.

الله(ص)[١].

٣ – في مكارم الأخلاق في مواعظ النبي ﷺ لابن مسعود: «يا ابن مسعود الإسلام بدء غريباً وسيعود غريباً كما بدء فطوبى للغرباء»[٢].

٤ – وفي تفسير فرات بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾[٣]. عن خيثمة عن أبي جعفرعليه السلام: «يا خيثمة إن الإسلام بُدئ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»[٤].

٥ – وفي حديث الإمام الرضاعليه السلام للمأمون: «...بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء. قيل: يا رسول الله ثم ماذا يكون؟ قال: ثم يرجع الحق إلى أهله»[٥].

٦ – وفي إكمال الدين عن السكوني عن الصادقعليه السلام عن

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٧٩٢، بحار الأنوار ٨: ١٢، ح ١٠.
(٢) مكارم الأخلاق: ٥١٩.
(٣) الأنعام: ١٥٨.
(٤) تفسير فرات الكوفي: ٤٤.
(٥) بحار الأنوار ٢٥: ١٣٦.

آبائه عليهم السلام: «إنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»(١).

٧ - وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: (النُزّاع من القبائل)(٢).

٨ - وفي حديث عبد الله بن عمر قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير، ومن يعصهم أكثر ممّن يطيعهم»(٣).

٩ - وعن عبد الله بن عمر قال: إنّ أحب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجتمعون

---

(١) إكمال الدين ١: ٣٠٨.

(٢) مسند احمد/ مسند عبد الله بن مسعود ٨/ ١٣١ حسب ترقيم المكتبة الشاملة.

(٣) مسند احمد مسند عبد الله بن عمر ١٣/ ٤٠٠ حسب ترقيم المكتبة الشاملة.

إلى عيسى بن مريمعليه السلام يوم القيامة[١].

١٠ – عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده عن رسول الله(ص): «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سُنّتي ويعلّمونها الناس»[٢].

١١– وعن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(إن الدين بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ اول مرة فطوبى للغرباء)[٣].

١٢– وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء).

قيل يا رسول الله: ومن الغرباء؟ قال: (الذين يصلحون عند فساد الناس)[٤].

---

(١) الابانة الكبرى لابن بطة ٢ / ٢٩٠ . حسب ترقيم المكتبة الشاملة.

(٢) مسند الشهاب القضاعي ٤/ ١١٢ حسب ترقيم المكتبة الشاملة.

(٣) مسند احمد/ مسند ابي هريرة.

(٤) الابانة الكبرى لابن بطة ١/ ٣٦ وفي حديث آخر بهذا المعنى عن واثلة بن الاسقع وفي نهاية الحديث:

(الذين يصلحون اذا فسد الناس، لا يمارون في دين الله، ولا يكفرون

الروايات الواردة في الغربة ٧

١٣- وعن أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[(١)].

١٤- وعن سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء).

قيل: ومن الغرباء؟ قال: (الذين يصلحون إذا فسد الناس)[(٢)].

أهل القبلة). الابانة ٢/ ٤٢ و٢/ ٣٩ بحسب (المكتبة الشاملة).

وبهذا المعنى وردت احاديث اخرى نشير إلى مصادرها عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله (ص). المعجم الاوسط للطبراني ١٦/ ٦٩ حسب الترقيم المتقدم.

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله (ص). دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٠ (حسب الترقيم المتقدم).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص). مسند أبي يعلى ٢/ ٤٥١ (حسب الترقيم السابق).

وعن عبد الرحمن بن سنة. معرفة الصحابة لابن نعيم ١٢/ ١٩٦ (حسب الترقيم السابق).

(١) المعجم الاوسط للطبراني باب من اسمه احمد ٤/ ٤٥٧ (بحسب المكتبة الشاملة).

(٢) المعجم الاوسط للطبراني باب من اسمه اسامة ٧/ ١٤١ (حسب الترقيم السابق).

١٥- وعن جابر بن عبد الله الانصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، قال: ومن هم يا رسول الله؟ قال: (الذين يصلحون حين يفسد الناس)[١].

١٦- وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء، وان بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يمسي الرجل فيها مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً، ويُمسي كافراً، يبيع اقوام دينهم بعرض من الدنيا)[٢].

٢ـ معنى الغربة في الروايات

الغربة في مقابل الإلفة والأنس.

ومعنى الحديث: إن الإسلام بدأ منذ أول يوم غريباً لا يعرفه أحد، وتنكّر له الناس، وكان المسلمون قلّة ومطاردين

---

(١) المعجم الاوسط للطبراني باب من اسمه عمارة ١١/ ١٤٤ (حسب الترقيم المتقدم).

(٢) المعجم الاوسط للطبراني، باب من اسمه محمد ١٣/ ٤٦ (حسب الترقيم المتقدم).

وملاحقين ويعذبون.

و قد بلغت هذه المواجهة قمتها في مقاطعة قريش للنبي ﷺ وأهل بيته وأصحابه فترة من الزمن في شعب أبي طالب، تحمل المسلمون خلالها كثيراً من الأذى.

ثم أصبح الإسلام معروفاً للناس واستقبله الناس ودخلوا فيه أفواجاً، وفتح الله لهم الأرض... وبذلك انتهت المرحلة الأولى من الغربة.

وسيعود الإسلام إلى غربته مرة أخرى.

وفي تفسير معنى الغربة الواردة في الروايات السابقة يقول الجزري: أي أنه كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده، لقلّة المسلمين يومئذٍ وسيعود غريباً كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء، (فطوبى للغرباء)، أي الجنة لأولئك المسلمين الذين كانوا في أول الإسلام، ويكونون في آخره، وإنما خصّهم بها لصبرهم على أذى الكفار، أولاً وآخراً ولزومهم دين الإسلام[1].

---

(١) بحار الأنوار ٨: ١٢.

الغربة المذمومة:

والغربة ليست مطلوبة، ولا محمودة إذا كانت بمعنى الانكفاء على الذات والاستيحاش من الناس والانفراد والفرار من المجتمع، وهذه الغربة هي التي يعاني منها الإنسان المعاصر ويشعر بها في الحضارة المادية المعاصرة. (فهو يشعر أنه غريب عن نفسه، غريب عن أهله، غريب عن مجتمعه، غريب عن هذه الحضارة التي تتنكر لقيمه وأخلاقه وفطرته وضميره وعاطفته، وأنّه ليس من وشيجة بينه وبين هذه الحضارة وهذا المجتمع، فهي شيء آخر ليس من سنخ تكوينه وشخصيته الحقيقية التي تعمل هذه الحضارة على عزلها وضمورها وتجفيف منابعها).

الغربة هنا، هي حالة عدم الانسجام بين فطرة الإنسان وتكوينه الذي خلقه الله تعالى عليه وبين الوسط الذي يعيش فيه، وبينه وبين نفسه.

وهذه الغربة هي الغربة المذمومة في الإسلام، وهي من مصائب الإنسان في الحضارة المادية.

إن الحضارة المعاصرة تعتمد المادة، بشكل واسع، وتتنكر للغيب، وللإيمان بالله، وللعبودية لله، وللروح، وللقيم

الروحيـة... وتبنـى العلاقـات الاجتماعيـة علـى أسـس ماديـة بحتة... والإنسان المعاصر يشعر انـه يعـيش فـي وسـط غريـب عن تكوينه وفطرته، وأن هـذه الحضـارة لا تسـتجيب لفطرتـه وتكوينـه، ويحسّ بفجـوة عميقـة تفصـله عـن الوسـط الـذي يعيش فيه، ويشعر إنه غريب عـن هـذا الوسـط، غريـب حتـى عن نفسـه، لأنـه هـو أيضـا يتحـول بالتـدريج إلـى عنصـر مـن العناصر التي تكون الوسط الذي يعيش فيه.

فيشعر بالنفور والغربة عـن نفسـه وعـن الوسـط الحضـاري الذي يعيش فيه.

وهــذه هــي الغربــة المذمومــة التــي يرفضــها الإســلام ويكافحها، ويدعو إلـى الانسـجام التـام بـين الإنسـان ونفسـه، وبين الإنسان والوسط الحضاري الذي يعيش فيه.

إن هذه الغربة تنطوي على أمرين:

أولاً- الاستســلام للواقــع الفاســد القــائم فــي الوســط الاجتماعي، وعدم التصدي لتغييـره وهدمـه وبنائـه... فيتحـول الإنسان إلى جزء من أجزاء هذه الحضارة.

و**ثانياً**- الإحساس بالغربة وعدم الانسجام.

ولا يعـارض الثـاني الأول. فـإن الإنسـان عنـدما يستسـلم

للواقع الاجتماعي ويتحول إلى بعض مكونات الواقع الاجتماعي لا يفقد تكوينه وفطرته بالكامل، فيبقى يشعر بفطرته بصورة غامضة، ويشعر بالفجوة العميقة بينه وبين الوسط الاجتماعي الذي لا يستجيب لفطرته وتكوينه الذي خلقه الله عليه، فيشعر بالغربة تجاه الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه كما يشعر بالغربة عن نفسه أيضا، فينفر من الحضارة التي يعيش فيها، ويكرهها، ويكره نفسه، ويتمرد على هذه الحضارة ويتمرد على نفسه، ويحاول أن يتهرب عنها وعن نفسه باللجوء إلى المخدرات. وهذا حديث طويل ومن مصائب الإنسان في الحضارة المادية شرحناه في بعض محاضراتنا من قبل.

وهذه هي الغربة المذمومة.

الغربة المحمودة:

وأما الغربة المحمودة فهي تقترن دائما بالمقاومة وعدم الانصهار في الوسط الاجتماعي.

إن الغربة هي الغربة، المذمومة منها، والمحمودة، وهي حالة عدم الانسجام بين مكونات الفطرة ومكونات الحضارة التي يعيشها الإنسان.

والفرق بينهما أن الغربـة المذمومـة تفقـد حالـة المقاومـة، وتتحول من الفعل إلى الانفعـال فـي السـخط علـى الحضـارة المادية والتمرد عليها والتهرب منها.

وأمّا الغربة المحمودة فتتحول إلى فعل في التصدي لتغيير الواقع الاجتماعي، ومقاومته، للانصهار في الوسط الحضاري، وهدم وبناء لإعادة بناء الحضارة الإنسانية على أسس متطابقـة مع الفطرة الإنسانية.

وهذه النقطة بالذات هي سرّ قيمة الغربة المحمودة

إنّ قيمة هذه الغربة تعود إلـى إنّ هـؤلاء الغربـاء يحملـون هموم هذه الرسالة في ظروف غربة الإسلام، وعنـدما تنحسـر قيم هذا الدين عن الساحة يبقى هؤلاء الغرباء ثابتين صامدين. وهذا الثبات والصمود في ظروف غربة هذا الدين هـو سـبب عودة هذا الدين إلى الحياة مـن جديـد، وهـؤلاء الغربـاء هـم الذين يحفظون الإسلام يومئذٍ، كما حفظوا الإسلام في اليـوم الأول لظهوره في مكة.

الغربة الأولى والغربة الثانية:

من حديث الإمام الرضا عليه السلام للمأمون: «بدأ الإسـلام غريبـاً وسيعود غريباً، فطوبى للغربـاء». يظهـر أنّ الغربـة الأولـى فـي

الصدر الأول من الإسلام والغربة الثانية في عصر ما قبل الظهور... ثم بعد ذلك يعود الحق إلى أهله.

والغربة الثانية تكون كالغربة الأولى صدود من قبل الناس وتنكّر لمفاهيم الإسلام.

ومن الممكن أن تكون الغربة الأولى بسبب صدود من الناس وتنكّرهم للإسلام وللتوحيد ومحاربة مفاهيم الإسلام ورفضها، والغربة الثانية تحريف للإسلام ومفاهيمه وأحكامه.

فالغربة الأولى إذن بسبب الإعراض والإنكار والغربة الثانية بسبب التأويل والتحريف، والنيل من نقاوة الفكر الإسلامي وأصالته، وتشويش الساحة الإسلامية بإثارة المشاكل الفكرية فيها وخلق جو من الاضطراب والتشويش والقلق الفكري. وإيجاد أقليات عقائدية وفكرية في المجتمع الإسلامي... كالفرق المنحرفة من القاديانية، والشيخية، والغلاة والبابية، والبهائية، والنواصب (والنواصب الجدد) والأغاخانية، وغيرهم.

ونحن نعتقد أن الغربة الثانية متحقّقة في عصرنا، ونرى تشابهاً كبيراً بين الغربة الأولى للإسلام في صدر الإسلام

وغربة عصرنا في الأفكار والشعارات والدعوة للجاهلية، ونرى عودة الجاهلية إلى الحياة، وانحسار قيم الإسلام عن الساحة الاجتماعية في مساحة واسعة من العالم الإسلامي.

ولكن الفرق بين الغربتين أنّ الغربة الأولى عن قلّة وهذه الغربة عن ضعف وليس عن قلّة.

روى أحمد في المسند عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «توشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا يا رسول الله: أمن قلّة يومئذٍ؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وهذا الحديث يوضح معالم الغربة الجديدة، وإنها تختلف عن الغربة الأولى اختلافاً جوهرياً. فالغربة الأولى من قلّة حينما كان المسلمون جماعة صغيرة مطاردة وملاحقة في مكة، والغربة الثانية، عن ضعف في نفوس المسلمين.

---

(١) المسند ٥: ٢٧٨.

٣ـ الأقسام الأربعة للغربة

وللغربة أقسام أخرى هي غربة الوطن، والغربة الحضارية، وغربة الخمول، وغربة الأنس بالله.

والغربتــان الأولــى والثانيــة، قهريتــان، والثالثــة والرابعــة اختياريتان.

١ ـ الغربة عن الوطن

الهجرة حالة قديمة في كلّ رسالات الله تعالى، ذلك أن الرسالات الالهية جميعاً قائمة على اساس توحيد الولاية والسلطان والتشريع لله تعالى، وتعبيد الانسان لله تعالى. . وهذا المبدأ مما يسخط الطغاة والمستكبرين، فيواجهون رسالات الله بالعنف والإرهاب.

ولكي يسلم حَمَلة الدعوة من فتنة العذاب والاضطهاد، والبطش والفتك، وتسلم الدعوة من خطر الاستئصال لابد من (الهجرة) حتى تتمكن (الدعوة) من أن تترسخ في الأرض، وتتكون سياسياً واجتماعياً وثقافياً.

إنّ الهجرة، ليست بحثاً عن الأمن فقط، وإنّما هي بحث عن الوسط الملائم لتكوين الجماعة المسلمة... وليست فراراً من العدو بقدر ما هي سعي للوصول إلى موقع أفضل

للانطلاق إلى مواجهة خصوم الدعوة، التي لابد منها على كل حال، وفي كل الحسابات.

وفي الهجرة يتم إعداد هذه الجماعة الفتية للمواجهة المسلحة، التي لابد منها على كل حال في العلاقة بينها وبين أئمة الشرك.

ومعاناة الغربة، عن الوطن معاناة شديدة يعرفها من قاساها، حيث يفقد الإنسان كل علاقاته الاجتماعية، وما ألفه وأنس به مرة واحدة.

ولهذه الغربة قيمة كبيرة عند الله.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من هاجر في سبيل الله كان مع إبراهيم عليه السلام في الجنة».

استمرار الهجرة:

والهجرة لا تنقطع بسبب وجود أسبابها من الدعوة إلى الله تعالى ومقاومة المستكبرين وجهادهم.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس، هاجروا وتمسّكوا

بالإسلام فإنّ الهجرة لا تنقطع مادام الجهاد»[١].

وعن رسول الله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل»[٢].

وعن جنادة بن أمية الازدي قال هاجرنا على عهد النبي ﷺ فاختلفنا في الهجرة فقال بعضنا: قد انقطعت، وقال بعضها: لم تنقطع، فدخلت على رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»[٣].

واليوم حالة الهجرة واسعة، لأن حالة الهجرة تقترن مع الجهاد (ما قوتل الكفار) فلما عادت المواجهة مع الكفر عادت الهجرة من جديد، واتسعت دائرة الهجرة والغربة عن الوطن.

ولصعوبة الغربة ومعاناتها الشديدة عَدّ رسول الله ﷺ الموت في الغربة من الشهادة في سبيل الله..

---

(١) كنز العمال: ٤٦٢٤٨.

(٢) كنز العمال: ٤٦٢٧٤.

(٣) كنز العمال: ٤٦٢٩٨.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «موت الغربة شهادة»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مؤمن يموت في غربته إلاّ بكت عليه ملائكة السماء رحمة له، حيث قلّت بواكيه، وفسح له في قبره، بنور يتلألأ من حيث دفن إلى مسقط رأسه»[٢].

ومن يمت في الغربة، يقع أجره على الله.

يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[٣].

ولما خرج رسول الله موسى بن عمران عليه السلام هارباً من فرعون وقومه إلى (مدين) على الحالة التي ذكرها الله وهو غريب خائف جائع، فقال: «يا رب، وحيد مريض غريب.

فألقى الله في نفسه: الفقير من ليس له مثلي كفيل، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس له مثلي

---

(١) معجم الحديث النبوي: ٤٧٢.

(٢) بحار الأنوار ٦٧: ٢٠٠.

(٣) النساء: ١٠٠.

مؤنس»[١].

الهجرة والتغريب:

والهجرة اليوم حالة واسعة في العالم الإسلامي، وتهددها بحكم تضافر الهجرة إلى الغرب أخطار حقيقية مثل خطر التغريب، ومن أهم مصائب التغريب التحلل من القيود والقيم.

إنّ الهجرة الواسعة إلى الغرب تحمل خطر الانصهار الحضاري في الغرب للجالية المسلمة.

وعلى أصحاب الرأي والحل والعقد اليوم في العالم الإسلامي أن يحموا المسلمين من خطرين حقيقيين ملاحقة الحكام الظالمين واضطهادهم لهم في أوطانهم، والانصهار في الحضارة الغربية التي تأوي إليها الجالية المسلمة فراراً من اضطهاد الحكام، وأحياناً فراراً من الضائقة الاقتصادية في بلادهم.

---

(١) عدة الداعي لابن فهد الحلي: ١٠٧ . بحار الانوار ١٣/ ٣٦١. الموجود في المصدر من كلمة: (الفقير من ليس له مثلي كفيل) واما الجزء المتقدم فليس بالمصدر.

٢ ـ الغربة الحضارية

الغربة الحضارية حصلت بعد الغزو الحضاري لأوطاننا وبيوتنا فأصبحنا غرباء في أوطاننا وبيوتنا.

وهذه الغربة ليست من قبيل الاغتراب عن الأهل والوطن وإنما حصلت لنا في أوطاننا وبلادنا وبين أهلينا وذوينا.

إن المسلم اليوم غريب في وطنه، يشعر بان الجو الذي يحيطه غير الجو الذي يألفه ويطمئن إليه، وان الثقافة التي يتلقاها في المدرسة والجامعة ومن خلال محطات البثّ، والتلفاز والصحافة شيء آخر غير ثقافة الإسلام... ويشعر أنّ المفاهيم والمصطلحات والأعراف والأخلاق والقيم والآداب الإسلامية أصبحت غريبة في بلاد المسلمين، وان السلام غريب، والصلاة غريبة، والصوم غريب، والعفاف غريب.

ويشعر انه يعيش في جوّ ثقافي وحضاري لا يألفه، وهو في وطنه وبين أهله وذويه.

فينقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والقيم إلى أضداد القيم في مثل هذه الأجواء الغريبة... إذا انقلب المسلم إلى شريحة من هذا المجتمع وجزء من هذه الحضارة، بأعرافها وأخلاقها وقيمها، فهذه هي الغربة المذمومة، وإذا

احـتفظ المسـلم بسـلامة عقلـه وروحـه وأخلاقـه وثقافتـه، واحـتفظ بحـدود الله، ولـم يـدخل فيمـا يـدخل فيـه النـاس، وتصدى للتغيير والأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، ولـم يجرفه التيار، وحاول أن يغير مجرى التيار... فهذه هـي الغربـة المحمودة.

لقد بعث الله ورسوله ﷺ ليعيد الناس إلى فطرتهم الأولى يوم خلق السماوات والأرض وخلـق الإنسـان علـى الفطـرة... فغيّـر رسـول الله ﷺ الأفكـار والأخـلاق والقـيم والمفـاهيم والتصورات وقـوانين الحيـاة إلـى هيئتهـا وشـكلها الأول يـوم خلـق الله الإنسـان، بفطرتـه السـوية... فـي عـالم كلـه جهالـة، وانحراف عن خـط الفطـرة، وجاهليـة فـي الثقافـة والأخـلاق والعلاقات ونظام الحياة ونظام التربية.

عـن رسـول الله ﷺ: «إن الزمـان والسـماوات قـد اسـتدارا كهيئة يوم خلق الله السماوات والارض»[1].

وفي هذا الانقلاب الثقافي والحضـاري الواسـع يقـوم نفـر

---

(١) السيرة الحلبية ٣ / ٢٥٦ .

قليل من المؤمنين بأعباء هذا الانقلاب الشامل في وسط جاهلي واسع.

عن رسول الله ﷺ: «طوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير، ومن يعصهم أكثر ممّن يطيعهم».

وفي حديث آخر: «من الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها للناس».

في هذه الغربة يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، عندئذٍ يتحول الصالحون إلى غرباء ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر.

كان المسلمون يعيشون في غربة كاملة، حتى انتشر الإسلام وترسخت مفاهيمه وتحوّلت الغربة إلى أنس وألفة وتطابق بصورة نسبية مع الوسط الاجتماعي الذي تجسدت فيه قيم الإسلام وتصورات وأفكاره – في بعض الحدود –.

فأصبح القاضي يحكم بالقرآن، والمساجد ترفع الأذان لإقامة الصلاة، وأصبح الحجاب عرف شايع، لا ينكره أحد. وبكلمة واحدة أصبح الواقع إسلامياً، بصورة نسبية، وصار المسلم يشعر بالانتماء النفسي إلى هذا الواقع، وبذلك انتهت

فترة الغربة... ثم انحسر الإسلام من الساحة واشتد الانحسار حتى أصبحنا غرباء في بلادنا، غرباء في صلاتنا وثقافتنا وأخلاقنا ومصطلحاتنا وأعرافنا ولغتنا ودعاءنا.

ونحن نجد في الروايات عن رسول الله ﷺ إشارة إلى هذا الانقلاب الفكري والثقافي والحضاري في العصور الأخيرة للإسلام باتجاه معاكس للإسلام واليك بعض هذه الروايات:

عن رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان وجوههم وجوه الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين كأمثال الذئاب الضواري سفاكون للدماء، لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإن تابعتهم ارتابوك، وإن حدثتهم كذّبوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، السنة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنة، والحليم بينهم غادر، والغادر بينهم حليم، والمؤمن فما بينهم مستضعف، والفاسق فيما بينهم مشرّف... فعند ذلك يحرمهم الله قطر السماء في أوانه، وينزله في غير أوانه، ويسلط عليهم شرارهم، فيسومونهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم ويستحيون

نساءهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم»[١].

وورد فـي بعـض الأحاديـث إن المنكـر يكـون معروفـاً والمعروف يكون منكراً، وهو إشارة إلى الانقلاب فـي القـيم والمواقف والأعراف.

وطبيعي في مثل هذه الأحـوال أن الإنسـان الملتـزم الـذي يلتزم بصلاته وصـومه وقيمـه وأعرافـه يكـون كالغريـب، فـلا يكاد يخرج من بيته إلـى الشـارع والـى الأوسـاط الاجتماعيـة والى محل عمله ومحل دراسته حتى يجد كل شيء على غير الهيئة التي يقررها الإسلام ويخطط له.

وليس شيء في مثل هذه الظروف الصعبة أفضـل واقـرب إلى الله من أن يصمد الإنسان المسلم إزاء هذا التيـار ويحفـظ نفسه وأهله مـن الانجـراف معـه ويعمـل علـى التصـدي لهـذا التيار لتغييره وتوجيهه بالاتجاه الصحيح، فهو كالصابر القابض على الجمر في معاكسته التيار، عن رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٤٥٣، جامع الأخبار: ١٢٩ – ١٣٠.
(٢) جامع الأخبار: ١٢٩ – ١٣٠.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه له أجر خمسين منكم»[1].

وهذا الأجر المضاعف، خمسين مرة، لمن يقاوم التيار ولا يستسلم له، ولا ينجرف معه... عندئذ يكون أجره أضعاف اجر الناس يوم يكون الجو إسلامياً والثقافة إسلامية، خمسين مرة، ويكون حاله في الصبر والمقاومة وتحمل الظروف الصعبة كمن يقبض الجمرة بيده.

والمنهج السليم في مواجهة هذه الظروف الصعبة أن يحصن المؤمنون أنفسهم بأنفسهم، من خلال التجمعات الصغيرة بين المؤمنين أنفسهم، والاهتمام بحضور الاجتماعات الإسلامية الموجهة مثل صلاة الجماعة والجمعة ومجالس الدعاء ومجامع المؤمنين والمجالس التي تنعقد في مناسبات أهل البيت عليهم السلام... هذه التجمعات الصغيرة تمنح المؤمنين حصانة تجاه الوسط الاجتماعي الفاسد... هذا **أولاً**.

و**ثانياً**: التعويض عن المؤسسات الاجتماعية الفاسدة مثل

---

(١) أمالي الطوسي ٢: ٩٩.

التلفاز والصحافة الفاسدة والسينما والمسرح بمؤسسات مشابهة لها سليمة، تؤدي نفس الهدف، بصورة سليمة وضمن حدود الله تعالى.

ومن أعظم العوامل التي تحصّن المؤمنين في مثل هذه الظروف الإيمان بالله، فإنّه يبدل استيحاشه إلى أنس وألفة، ووحدته إلى ثبات وطمأنينة.

وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب الناس، ويدعوهم إلى أن لا يستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله...

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»[1].

ومثل هذه المائدة (التي شبعها قصير وجوعها طويل).

لا ينبغي أن تصرف المؤمنين عن المائدة الإلهية إلى أعدّها الله تعالى للمؤمنين... إن المائدة الحقيقية التي ينبغي أن تجتذب المؤمنين هي مائدة القرآن، وإن قلّ من يرتادها.

وعليهم أن يعرفوا دائماً أن الإيمان حالة نادرة عزيزة، وأن

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٩.

المؤمنين، في مثل هذه الأوساط قلة نادرة عزيزة فلا توحشهم القلة، ولا يستوحشونها.

عن قتيبة الأعشى قال سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «المؤمن اعز من الكبريت الأحمر فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟»[١].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا محالة يكون المؤمن غريباً في مثل هذه الأوساط.

روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «المؤمن غريب، ثلاث مرات»[٢].

٣ ـ غربة الخمول

النوع الآخر من الغربة (الخمول) وهي غربة، اختيارية محمودة يبتعد فيها الإنسان المؤمن عن أسباب الشهرة والأضواء. فإن الأضواء الاجتماعيّة والسياسيّة والسمعة والاشتهار عند الناس، إذا لم تكن خالصة لوجه الله تعالى،

---

(١) الكافي ٢: ٢٤٢.

(٢) الكافي ٢: ٢٤٢.

تستهلك الإنسان لا محالة، وتستهلك اهتماماته، وتشغله عن الله تعالى شاء أم أبى.

ومن هنا كان الصالحون يحرصون على تجنب الشهرة إذا أدت إلى الإخلال في علاقتهم بالله، وكانوا يحرصون على الابتعاد عن أسباب الشهرة حتى لا يشغلهم الناس عن الله، ولا يجد الشيطان إلى نفوسهم طريقاً، فإن في الشهرة والأضواء ثغرات كثيرة للشيطان إلى نفس الإنسان، ومزالق كبيرة كالعجب والغرور والحسد ومراقبة الناس.

فإن الاختلاط الكثير للناس يؤدي إلى مراقبة الناس، وتشغله عن الله وعن نفسه إلى اهتمامات وضيعة وحقيرة، يقول تعالى: ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾(١). وإنما يمنعنا الله تعالى من أن نمدّ عيوننا إلى ما متع الله به عباده لأنه يشغل الإنسان عن الله.

وهذه ليست دعوة للابتعاد عن الحياة الاجتماعية، واعتزال

---

(١) طه: ١٣١.

الناس وإنما هـي دعـوة إلـى الاقتصـاد فـي الاخـتلاط بالنـاس وتجنب الإسراف في الظهور والبروز في المجتمع ومخالطـة الناس من غير ضرورة، فإنها تحمل هذه السلبيات إلى الإنسان مهما حاول الإنسان أن يتنزه عنها.

وأهمّ هذه السلبيات أنّ الشهرة وما يستتبعها من الالتزامات الاجتماعيـة اسـتهلاك للعمـر والوقـت، وتعـريض للمزالـق، والفـتن. كالـدخول فـي الحسـد، والغيبـة، وبغضـاء المـؤمنين، والتنـافر، وأمثـال ذلـك مـن الابـتلاءات الكثيـرة ونكـرر مـرة أخـرى أن هـذه التعليمـات ليسـت بمعنـى أن يعتـزل الإنسـان الناس والمجتمع... فهي حالة لا يُرغّب إليها الإسلام بالتأكيد، وفي النصوص الإسلامية ورد تأكيد كثيـر علـى الـدخول مع الناس والاختلاط بهم والحضور في مجامعهم.

ولكن علـى أن يـتم ذلـك فـي غيـر إسـراف، وان يتجنّـب الإنسان مجتمعات الفارغين والبطـالين والفاسـدين، وعلـى أن يحرص الإنسان علـى عمـره ووقتـه أن يهـدره فـي مثـل هـذه الاجتماعات.

عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحب الأبرار الاخفياء الأتقيـاء الـذين إذا غـابوا لـم يفتقـدوا، وإذا حضـروا لـم يُـدعوا ولـم

يُعرضوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قرب عبد من سلطان إلاّ تباعد من الله تعالى، ولا كثر ماله ألا اشتد حسابه، ولا كثر تبعته إلاّ كثر شيطانيه»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ قدرتم إلاّ تعرفوا فافعلوا، وما عليك أن لم يثن عليك الناس. وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس، إذا كنت عند الله محموداً[٣]؟!

فكما أن الإسلام لا يدعو إلى الرهبانية بمعنى الانزواء، والهروب من الواقع كذلك لا يدعو إلى الاستغراق في مخالطة الناس والإسراف فيه، ويدعو إلى اجتناب المجالس والمحافل والاجتماعات التي تبعد الإنسان عن الله تعالى.

عن عبد الله بن سنان قال: قال: أبو عبد الله عليه السلام: «طوبى لعبد نؤمة، عرف الناس فصاحبهم ببدنه، ولم يصاحبهم في

---

(١) كنز العمال: ٥٩٢٩.
(٢) بحار الأنوار٧٢: ٦٧، ٢٧.
(٣) ميزان الحكمة٣: ١٠٩٨، عن بحار الأنوار ٧٣: ١٢١، ١١٠.

أعمالهم بقلبه، فعرفوه في الظاهر وعرفهم في الباطن»[١].

وعن الإمام علي﵇ - في وصف آخر الزمان -: «وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كل مؤمن نومة، إن شهد لم يُعرف، وإن غاب لم يُفتقد، أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى.

ليسوا بالمساييح ولا بالمذاييع، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّاء نقمته»[٢].

قال الشريف الرضي: (كل مؤمن نومة) إنما أراد به خامل الذكر. والمساييح جمع سياح الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم، والمذاييع جمع مذياع وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة اذاعها ونوّه بها.

عن الازدي قال: قال أبو عبد الله﵇: «إنّ من أغبط أوليائي عندي عبد مؤمن ذو حظ من الصلاح، وأحسن عبادة ربه، وعبد الله في السريرة، وكان غامضاً في الناس، فلم يشر إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر عليه، تعجلت به المنية،

---

(١) البحار ٦٩: ٢٧٢، ومعاني الأخبار: ٣٨٠، ٣٨١.

(٢) ميزان الحكمة ٣: ١٠٩٩، عن نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٣، شرح نهج البلاغة لابن الحديد ٧: ١٠٩.

فقل تراثه وقلت بواكيه»[1].

يقول سفيان الثوري سمعت الإمام جعفر الصادقعليه السلام يقول: «عزّت السلامة، حتى لقد خفي مطلبها، فإن يكن في شيء فيوشك أن يكون في الخمول»[2].

وأمير المؤمنينعليه السلام له كلمات دقيقة في الخمول.

يقولعليه السلام: «كثرة المعارف محنة، وكثرة خلطة الناس فتنة»[3].

يعني أن الاشتهار بين الناس يجرّ الإنسان إلى الكثير من المحن، والمخالطة الشديدة للناس تجرّ الإنسان إلى الكثير من الفتن.

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه»[4].

ولكن ينبغي أن نوضح هنا، وهنا حافة الانحراف

---

(١) البحار ٦٩: ٢٧٤.

(٢) البحار ٧٨: ٢٠٢.

(٣) ميزان الحكمة ٣: ١٠٩٩، عن غرر الحكم: ٧١٢٤.

(٤) ميزان الحكمة ٣: ١٧١.

والسقوط، والحافة الخطيرة للانحراف والمزالق. علينا أن نوضح النقاط التالية فإننا في هذه النقطة على حافة خطرة يكثر الانزلاق منها:

١- لا نقول إنّ الحياة الاجتماعية بشكل عام مذمومة، لأن الحياة الاجتماعية والتعاون على البر والتقوى مما يأمر الله تعالى به. وقد أمرنا الله بالتعاون والتبار وصلة الأرحام والتقوى وزيارة المؤمنين، والتواصل وأداء حقوق الجيران وعيادة المرضى، وقضاء حاجات المؤمنين، وهذا كله مما يريده الله، ولذلك لم ندعو إلى الاعتزال عن الحياة الاجتماعية، وإنما الدعوة إلى الابتعاد عن الأضواء إذا شعر الإنسان إنّها تبعده عن الله تعالى.

وأمّا الدخول في المجتمع من أجل خدمة الناس، والصبر على الناس، والصبر على ما يكره من الناس، لا ابتغاء ما يحبّ من الناس من الاحترام هو من أفضل الأعمال والفرق بينهما دقيق. وهذه المخالطة من المخالطة المحمودة.

عن رسول الله ﷺ: «الذي يخالط الناس ويصبر على

أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

وقال رسول الله ﷺ -لرجل أراد الجبل ليتعبد فيه-: «لصبرُ أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة»(٢).

٢- ينبغي أن يدخل الإنسان المجتمع والعلاقات الاجتماعية بقدر ما ينفع، ويفيد، ويخدم أفراد المجتمع، أمّا إذا كان دخوله بطراً، ورئاء الناس فلابد له أن يتجنبه لأنه مضيعة للعمر. فلا يدخل الحياة الاجتماعية للتفاخر والتظاهر والزينة.

يقول تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾(٣). ولا ينبغي المؤمن أن ينحدر إلى هذا الوجه من وجوه إلى الحياة الدنيا: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر.

---

(١) كنز العمال: ح ٤٨٦ و ٧٦٩.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٢٦٠٩، عن الدر المنثور ١: ١٦١.
(٣) الحديد: ٢٠.

إنّ هـذا الوجـه مـن الحيـاة الاجتماعيـة والعلاقـات وجـه مذموم وهو وجه التفاخر والتكاثر والبطر والرئاء...

٣- الابتعاد عن الأضواء السياسية والاجتماعيـة إذا كانـت هذه الأضواء تجلب الفساد والفتنة في حياة الإنسان. لأن هذه الأضواء تأتي مع الموقع والسـلطان. وقـد سـمعنا الروايـة عـن رسول الله ﷺ: إنّ القرب من السلطان بعد عن الله، وقرب من أشراك الشيطان. وهذا هو الوجه السلبي المذموم للسلطة.

أمّا الوجه الإيجابي للسلطة. فهـو أن يطلـب الموقـع ليقـيم الحق ويـدحض الباطـل، ويكتسـب بـذلك مرضـاة الله عنـدما يجـرد نفسـه لخدمـة النـاس، ولـيس لمـا يحـب مـن الكبريـاء والعجب والاحترام والإعجاب عند الناس.

فإن السلطة مـن أجـل هـذه الغايـة محمـودة وذات قيمـة، ومن هنا ورد في القرآن الدعاء بطلب السلطان إذا كان لهـذه الغايـة ﴿**وَاجْعَـل لِّـي مِـن لَّـدُنكَ سُـلْطَانًا نَّصِـيرًا**﴾[1]. ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً**﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٨٠.

(٢) الفرقان: ٧٤.

وإنما تكون السلطة مذمومة إذا كانت من أجل البطر والرئاء والتظاهر والتكاثر.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المعروفة بالشقشقية: (أما والذي فلق الحبة وبرئ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز)[1].

يقول ابن عباس: دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: «ما قيمة هذا النعل؟» فقلت: لا قيمة لها يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام: «والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»[2].

إذا أخذنا بنظر الاعتبار هذه النقاط الثلاث عرفنا الإطار الشرعي للخمول المحمود والاعتزال المذموم في الشريعة.

---

(١) نهج البلاغة/ الخطبة الشقشقية قسم الخطب.

(٢) نهج البلاغة/ الخطبة ١٥ .

وما ورد في فضل الخمول يؤخذ بنظر الاعتبار بعد معرفة هذه النقاط.

٤ـ الغربة في الدنيا عن الناس

وهذا هو النمط الرابع من الغربة، وأصحابها يعيشون في الدنيا كما يعيش سائر الناس، من غير فرق، ولكن قلوبهم متعلقة بالله وبالآخرة.

وقليل من الناس أولئك الذين يحسنون أن يعيشوا الآخرة في الدنيا... إنّما الناس في الغالب ممّن تستغرقه الدنيا، فينقطع عن الآخرة وينساها، وهم أهل الدنيا، وهم كثير، وطائفة أخرى من الناس، تستغرقهم الآخرة، فينقطعون عن الدنيا، وهم أهل الرهبانية والاعتزال، وهم قليل.

وأما الذين يعيشون الآخرة، ولا يقطعهم عيش الآخرة عن الحياة والحركة في الدنيا في وسط الناس، فهم أقل من القليل، أولئك هم الذين يتحركون مع الناس في الأسواق وقلوبهم متعلقة بالله، وكأنهم غرباء عن الناس، وهم مع

الناس، وتلك هي واحدة من الغربات الحميدة.

عن رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب»(١).

وهذه هي الغربة الاختيارية، التي يكتسبها الإنسان باختياره لأنه يتعمد الاستيحاش من الناس وعدم الاسترسال في العلاقات الاجتماعية التي تصرفه عن علاقته بالله.

وهي تتكون من وجهين، الوجه الأول: الأُنس بالله والاشتغال بذكر الله، والوجه الثاني: الانقطاع عن الناس، والاستيحاش من الناس. وعندما يحصر الإنسان اهتمامه بالله وذكر الله ينصرف عن الناس بصورة طبيعية. فهو يعيش في وسط الناس مثلهم، يمارس حياته بشكل طبيعي، كما يمارسون حياتهم، يتحرك معهم في السوق، ويدخل البيت ويخدم أهله، ويعمل، ويتزوج، مثل سائر الناس. ولكن ما يميزه عن الناس ويفصله عنهم أن قلبه متعلق بالله تعالى، وليس مع الناس في الدنيا.

ورد عن أمير المؤمنين في هذا المعنى: «صحبوا الدنيا

---

(١) معجم الحديث النبوي: ٤٧٣.

بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى».

وكان يقول أحدهم: أعيش مع الناس منذ ثلاثين سنة، ولستُ معهم.

فهو يعيش مع الناس، ولكن قلبه قد عزف عن الدنيا والناس.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلّى بالناس الصبح ذات يوم فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أصبحت يا فلان. قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فتعجّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، وقال: إنّ لكل يقين حقيقة (علامة) فما حقيقة يقينك؟ قال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها»[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المتقين: «عظم الخالق

---

(١) أصول الكافي - كتاب الإيمان والكفر - حقيقة الإيمان واليقين ٢:٤٤.

في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»... وإذا صغرت الدنيا في عين الإنسان، فلا تجتذب الدنيا قلبه، ويبقى قلبه مع الله ولله، وإن كان جسمه مع الناس في الأسواق والمجامع والمحافل.

الضوابط الشرعية للانقطاع عن الدنيا:

إنّ التعلق بالله تعالى يقطع الإنسان عن الدنيا، والتعلق بالدنيا يقطع الإنسان عن الله.

وهنا أيضا حافة دقيقة للانحراف، ولكي لا نقع في الانحراف الذي وقع فيه الكثير من أهل التصوف لابد أن نذكر هنا حقيقتين:

الحقيقة الأولى: إنّ التعلق بالله لا يعارض الاختلاط بالناس ومعاشرة الناس، وإنما يعارض التعلق بالدنيا. فمن الممكن أن يعيش الإنسان في الدنيا وفي المجتمع، ويذهب إلى السوق والمدرسة والمعمل والدائرة ويعمل في السياسة، ولكن في نفس الوقت لا يكون متعلقاً بالدنيا – وعلامة التعلق الحزن والفرح، الحزن على فقدان الدنيا، والفرح بما يرزقه الله من الدنيا.

يقول تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[(١)].

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾»[(٢)].

إنّ التعلق غير المخالطة والمعاشرة والدخول في الحياة الاجتماعية.

نعم، قد يكون المخالطة والمعاشرة والدخول في الحياة الاجتماعية مضراً بالتعلّق بالله إذا أسرف الإنسان في ذلك.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيش مع الناس، ويتفاعل مع همومهم، ويدخل السوق، ويقابل الناس، وكان أقرب الناس إلى الله، ولم يتعلق قلبه بشيء من الدنيا قط.

و**الحقيقة الثانية**: إنّ كل شؤون الحياة الدنيا كالدراسة والتجارة والسياسة والقتال والزواج والأكل والنوم والشرب

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠: ٨٧.

والاختلاط والمعاشرة يمكن أن يقوم بها الإنسان في امتداد التعلق بالله، يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(١).

فيكون كل ذلك في امتداد مرضاة الله، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ أمثال هذه الممارسات ليس فقط لا تقطعه عن الله، ولا تحجبه عن الله، بل تعمّق حالة الإخلاص لله، وتعمّق حالة الإقبال على الله، من دون أن يحتجب صاحبه عن الحياة الدنيا. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم، ويقاتل، ويخالط الناس، ويبيع ويشتري، دون أن يكون لشيء من ذلك أثر سلبي على قلبه في الإخلاص والإقبال على الله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القمّة من الإخلاص والإقبال ومن أقرب الناس إلى الله.

وإذا تبيّن هاتان الحقيقتان.

أقول: إنّ هذه غربة رابعة، وهي أن يعيش الإنسان في الدنيا وليس فيها قلبه، غريب عن الناس وهو في وسط الناس

---

(١) الحديد: ٢٣.

يتعامل مع الناس وليس مع الناس.

والناس يعيشون في الدنيا على نحوين: النحو الأول من الناس، أولئك الذين يعيشون في الدنيا بقلوبهم وأجسامهم وعقولهم، والنحو الآخر بأجسامهم وعقولهم، دون قلوبهم.

والمتقون هم الذين يعيشون في الدنيا بأجسامهم وعقولهم، فهم (علماء حلماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا! ولقد خالطهم أمر عظيم).

(خولطوا) أي خالطهم الجنون، كالعاشق الولهان الذي يعيش مع الناس وقلبه عند من يعشق، وهذا هو النحو الرابع من الاغتراب.

الوجه الآخر للغربة

هذا الزهد والخمول والغربة، هو أحد وجهي القضية، وهو عمق القضية، أما الوجه الظاهر للناس من المؤمن فهو ألف مألوف، بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، هشّ بش، ليس بعبوس، مخالط للناس، يؤدي حقوق المخالطة والمعاشرة من التزاور والتعاون والتسامح والعفو والحب، والناس عنده صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يحب

الناس بل يحب الأشياء...

وقد كان رسول الله ﷺ يسمّي سيوفه وملابسه وعمامته ودوابه، لكلّ منه اسم، فهو يأنس بالأشياء ويحبها... ويقول لجبل (أحد) وقد مرّ به: «هذا جبل يحبنا ونحبه».

بعكس الشعور (الوجودي)[1] بالغربة والشعور (الإلحادي)[2] بالغربة، أولئك يشعرون أنَّ القضاء والقدر (الأعمى) أوقعهم في مآسي الدنيا ومصائبها، فيكرهون الدنيا وأقدارها، ويمقتونها، وينفرون منها، ويشعرون بالغربة تجاهها، كما يشعر الإنسان بالغربة تجاه عدوّه، وهو من الغربة المذمومة التي يمقتها الله تعالى.

إن المؤمن يشعر تجاه الكون كله من الإنسان والحيوان والنبات والجماد، بالقرابة والوشيجة، والصلة العميقة.

فهو يؤمن بأن الله تعالى سخّر له هذا الكون، والكون كله بشمسه وقمره وسحابه ومجاره ونباته وحيوانه يخدمه، وان الله تعالى جعل الناس كل الناس إمّا أخاً له في الدين أو نظيراً له

(١) أصحاب المذهب الوجودي.

(٢) أصحاب النظرية الماركسية.

في الخلق.

فهو يشعر بالألفة تجاه هذا الكون.

وليس كذلك شعور (الوجوديين) تجاه الكون والمجتمع، فهو يشعر بالغربة والعبث في المجتمع... ومن لا يصدق يقرأ قصة (الغريب) لأحد الكتاب الوجوديين المشهورين[1]، ليعرف حقيقة التصور الوجودي عن الكون والإنسان.

وكذلك التصور الإلحادي عن الكون والإنسان وهو لا يختلف عن تصور الوجوديين.

الانقطاع إلى الله عن الدنيا في كلمات علي بن الحسين (ع):

ونختم هذه المحاضرة بالكلمات المروية عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، في المناجاة الخامسة عشرة، وهي كلمات شفافة رقيقة، ولوحة فريدة ترسم العلاقة بالله تعالى في أجمل لوحة فنية من روائع الدعاء والمناجاة.

فاستمعوا إليه عليه السلام:

«فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فإنك

---

(١) البير كامو.

لا غيرك مرادي، ولك لا سواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علّتي وشفاء غلّتي وبرد لوعتي وكشف كربتي فكن أنيسي في وحشتي».

والذي ينصرف إلى الله يمثل هذا الانصراف لا يتعلق قلبه بغير الله، يعيش مع الناس ولكن قلبه مع الله، ويدخل في السوق، ويخرج إلى الحياة الواسعة، ولكن قلبه لا يزال متعلقاً مشدوداً بالله، لأنّ ذكر الله لا يفارقه.

الفهرس